ثنائيـــة التفسيـــر والتأويـــل
فـــي مقاربـــة الخطـــاب الدينـــي

أ/رواق سمـــاح
كليـــة الآداب واللغـــات
جامعـــة بسكرة

الملخّص:

لقد تعددت الإجراءات المتوجهة للوصول إلى المعاني المتولدة من داخل المتون اللغوية وتلك الإجراءات كانت(إما تفسيرية أو تأويلية)ولئن كان الإجراء التفسيري يعنى بالوصول إلى الوضوح والإبانة فقد عني الإجراء التأويلي بتعدد المعني من خلال آلية الاستنباط ومن هذا المنطلق سأتناول الاجرائين (التفسيري والتأويلي) بالدراسة محاولة تحديد مواطن الاختلاف والاتفاق بينهماوكذا إبراز الاختلاف والتعدد في الفعل القرائي للنص الديني.

Résumé :

Nous avons de nombreuses procédures destinées à accéder à la signification produite à l’intérieur des textes et la langue de ces actions ont été (soit une note explicative ou interprétative)Bien que l’action et d’nterprétation des moyens d’accès à la clarté lbaanah mea multiplicité procédure herméneneutique du sens à travers le mécanisme de déclenhement
De ce point de vue ,je vais soit la procédure (d’interpétation et herménetique) étude tente d’identifier la différence et la diversité dans l’acte de lecture du texte religieux .

مدخـــــــل

فقد تعددت الإجراءات المتوجهة للوصول إلى المعاني المتولدة من داخل البناء اللغوي وصولا إلى تعدد مستوياتها وطرائق تولدها، وتلك الإجراءات كانت إما تفسيرية أو تأويلية، ولئن كان الإجراء التفسيري يعنى بالوصول إلى الوضوح وإزالة العقبات التي تعترض عملية القراءة، وتظهر على سطح النص، وتوجب التوضيح فقد عني الإجراء التأويلي بتعدد المعنى وقابلية البنى اللغوية على مضاعفة المعاني من خلال عملية الاستنباط التي هي قوام الفعلي التأويلي .

هذه النظرية قد تبناها فريق من اللغويين في حين أن فريق آخر قد وضعهما معا على قدم المساواة من حيث ارتباط أحدهما بالأخر، ولـــم يجد مسوغا للتفرقة بين مصطلحين _ التفسير والتأويل_ يصلان إلى الغاية والنتيجة نفسها, وكان لهذا الخلاف أثره في اختلاف أنواع النصوص التفسيرية المحاولة فهم القرآن الكريم.

وفي هذا الصدد سأعرض آراء اللغويين والنحويين المتوجهة للتفرقة بين الإجرائين التفسيري والتأويلي انطلاقا من الخطاب الديني .

أولا_ التفسيــــــر: لغــــــة:

لقد اختلف الباحثون حول الجذر اللغوي لكلمة التفسير هل هي من" الفسر" أم من "السفر "، وتعني في الغالب ما يقترب إلى حد كبير من معنى " الترجمة " الآن، وإن كانت الترجمة داخل النظام اللغوي نفسه، ومن هنا نفهم لماذا أطلق ابن جني (أبو الفتح العثمان –القرن الرابع هـــ _ على شرحه لديوان المتنبي اسم ًالفسرً، هو مجرد شـــرح لمعاني المفردات، أما أول كتاب في شرح القرآن هو كتاب ًمحمد بن جرير الطبريً الذي ضم داخله كل ما سبقه في مجال شرح النص القرآني، فقد أطلق عليه اسم ًجامع البيان عن تأويل آي القرآنً.(1)

يقول السيوطي في مؤلفه الإتقان: ً التفسير تفعيل من الفسر وهو البيان والكشف، ويقال هو مأخوذ من ًالتفسرةً وهو اسم لما يعرف به الطبيب المرض >>(2) .

وقال الإمام الراغب الأصفهاني في المفردات : ًالفسر:إظهار المعنى المعقول ومنه قيل للتفسرة إظهار المرض ".(3)

وجاء في لسان العرب: الفسر: البيان، يقال :فسر الشئ،، وفسره أي أبناه،والفسر كشف المغطى والتفسرة: البول الذي ستدل به على المرض،حيث ينظر فيه الأطباء فيستدلون به على علة المريض وكل شئ يعرف به تفسير المشكل .(4)

وعرفه الفيروزآبادي: << الفسْرُ: الإبانة، وكشف المغطى كالتفسير ....>>، ونظر الطبيب إلى الماء كالتفسرة، أو هي البول كما يستدل به على المرض،أو هو كشف المراد عن المشكل>>(5)، وصفوة القول أن دلالة الفعل فسر لا تخرج عن معنى البيان والكشف والتوضيح والإظهار فتفسير الكلام بيان لمعناه وإظهار له.

ثانيا: التفسير إصطلاحا:

قد أورد ًمحمد حسين الذهبيً في مؤلفه ًالتفسير والمفسرونً مجموعة من التعريفات نذكر منها مايلي:

- عرفه أبوحيان في البحر المحيط بأنه: ًعلم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيبً.

- وعرفه بعضهم بأنه :" علم نزول الآيات وشؤونها، وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب مكيَها ومدنيَها ومحكمها ومتشابها وناسخها ومنسوخها، وخاصَها وعامَها، ومطلقها ومقيَدها،ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالهاً.(6)

وعرفه الزركشي:ًهو علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد –ص– وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه".(7)

وتتفق التعاريف السابقة على أن علم التفسير علم يبحث في معاني كلام الله المنزل على نبيه المصطفى (ص) لاستنباط أحكامه الشرعية.

فالتفسير يتعلق بعلوم معرفية تاريخية خاصة، نقلية هي من آليات عملية التفسير وأساس معرفته، كعلم القراءات، وأسباب النزول والأحكام الشرعية، فضلا عن علمه باللغة والأساليب العربية، لأن المفسَر يحاول الوصول إلى الوضوح بقدر طاقته، وبيان المراد من النص لإزالة الغموض ورفع اللبس عن النص.

ثالثا: التأويل لغة:

التأويل مأخوذ من الأول بمعنى الرجوع.

جاء في لسان العربً الأول: الرجوع إلى الشيء، يؤول أولا ومآلا:رجع، وأول إليه الشيء رجَعه......أما التأويل فهو ًتفعيلً من أوَل يؤول تأويلاً >> .[8]

وورد في مختار الصحاح: ً الـــتأويل: ما يؤول إليه الشيء، وقد تأوَله تأويلا >> .[9]

وعرفـــه القرطبي: << التأويـــل يكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه، واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه، أي صار ، وأوله تأويلا أي صيرته >> .[10]

وجاء في القاموسالمحيط :<< آل إليه أولا ومآلا: رجع، ... وأوَله إليه: رجعَه وأوَل الكلام تأويلا، وتأوَله: دبرَه وقدَره وفسَره >>.[11]

والمراد بتأويل الكلام هو ردَه إلى الغاية المراده منه، وإرجاعه إلى أصله وإعادته إلى حقيقته التي هي عين المقصود منه، وبعبارة أخرى هو رد معانيه وإرجاعها إلى أصلها الذي تحمل عليه وتنتهي إليه.

وقـــال الإمام ابن فارس عن الأول :<< الأول أصلان همـــا ابتـــداء الأمـــر وانتهـــاؤه من استعماله في الابتـــداء، والأول وهو مبتدأ الشيئ، ومؤنثه أولى، وجمعه أوائل ومن استعماله في إنتهاء الأمر.

والأيـــل :الذكر من الوعول،وسمي أيلا لأنه يؤول إلى الجبل وينتهي إليه ليتحصن به وقولهم: آل بمعنى: رجع ولهذا قالوا أوَل الحكم إلى أهله: أي أرجعه وردَه، **والأيالة:** هي السياسة، لأن الرعية ترجع الأمور وتردها إلى راعيها .... بمعنى الانتهاء، وتأويل الكلام عاقبته وما يؤول إليه ينتهي >>.[12]

ويـــرى ابـــن فارس أن الأول أصل للابتداء والانتهاء وهذان الأصلان متقاربان، وكأنَهما أصل واحد لأنَ كل منهما طرف في الأمر، فالأول بدايته ونهايته، فالأول ينتهي إلى الأخير، والأخير متصل بالأول.

رابعا: الـــتأويل اصطلاحا:

يقول الزركشي :<< أما التأويل فأصله في اللغة من الأول، ومعنى قولهم: ما تأويل هذا الكلام ؟ أي: إلام تؤول العاقبة في المراد به، كما قال تعالى **<< يوم يأتي تأويله >>** الأعراف 53 _أي تكشف عاقبته ... وأصله من المآل، أي:العاقبة والمصير،

وقد أولته فآل أي: صرفته فانصرف فكأنَ التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني >> .

وقال النيسابوري :<< التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة >> (13) .

ويعرَفه الغزالي بقوله :<< التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل، يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدَل عليه الظاهر ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة >>. (14)

ويقول محمد حسين الذهبي عن التأويل:<<أمـــا التأويل فملحـــوظ فيه ترجيـــح أحد محتمـــلات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ويتوصل إليه بمعرفته مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق >>. (15)

وبالجمع بين التعاريف السابقة نصل إلى أن صرف اللفظ عن دلالته يبقى إمكانا من ضمن إمكانـــات كثيرة يطرحها النسق التركيبي، للخطاب وتختلف معه طرق الصرف، فتتعدد تخريجات المعنى، وتبرز عناصر النسق التركيبي منافذ مهمة لفتح الخطاب على الاحتمالات الممكنة .ومنه فالتأويل يدور حول صرف اللفظ إلى غير معناه الظاهر لوجود قرائن تقتضي ذلك، فدور المؤول يتخطى ظاهر الخطاب ؛ لكي يمتلك ما يعدَه باطنه ليزيد على المعنى الظاهر عنصرا آخر يخفيه نسيج النص.

خامسا: الفرق بين التفسير والتأويل :

درج العلماء المسلمون منذ القرن الرابع الهجري تقريبا باستثناء الشيعة وبعض المتصوفة على تفضيل مصطلح التفسير على مصطلح التأويل، وصار شائعا أن التأويل جنوح عن المقاصد والدلالات الموضوعية في القرآن، ودخول في إثبات عقائد أو بالأحرى ضلالات من خلال تحريف عمدي لدلالات ومعاني المفردات والتراكيب القرآنية >>(16)

صحيح أننا نجد عند السيوطي_ القرن التاسع هــ_ تميزا دلاليا بين مصطلحي " التفسير" و"التأويل" يضعهما معا على قدم المساواة، من حيث ارتباط كل منهما بالآخر وحاجة المفسر _أو_ المؤول لهما معا، وذلك على أساس أن " التفسير " هو شرح لمعاني

الكلمات المفردة، في حين أن التأويل هو استنباط دلالة التراكيب بما تتضمنه من حذف وإضمار وتقديم وتأخير وكناية واستعارة ومجاز. (17)

وقال الراغب التفسير أعم من التأويل،وأكثر استعماله في الألفاظ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني كتأويل الرؤيا وأكثرهيستعمل في الكتب الإلهية .والتفسير يستعمل في غيرها .والتفسير أكثر ما يستعمل في معاني مفردات الألفاظ.

واعلم أن التفسير في عرف العلماء وأكثر استعماله في الألفاظ، وبيان المراد أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنى الظاهر وغيره والتفسير أكثره في الجمل، فإما أن يستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة، والسائبة والوصلية، وأما في وجيز مبين بشرح كقولك (و أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) البقرة _3_ وأما في كلام مضمن لقصة لا يمكن تصويره إلا بمعرفتها كقوله (**إنَما النسيءُ زيادة في الكُفْر**)[التوبة: 37]، وقوله (**وليس البرَ بأن تأتوا البيوت من ظهورها**) [البقرة:189] ...

وأما التأويل فإنه يستعمل مرة عاما ومرة خاصا نحو<<الكفر>> يستعمل تارة في الحجود المطلق، وتارة في جحود البارئ خاصة، والإيمان المستعمل في التصديق المطلق تارة،وفي تصديق الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة.(18)

وأورد الذهبي في مؤلفه:<< التفسير والمفسرون>> أقوالا في الفرق بين المصطلحين:

-التفسير والتأويل مصطلحان مترادفان بمعنى واحد فلا فرق بينهما أي: بيان القرآن وشرح آلياته وفهمها، وهذا مذهب أبي عبيدة معمر بن المثنى وأصحابه.

- التفسير بيان معاني الألفاظ القرآنية التي وضعت لها في اللغة كتفسير الصراط بالطريق والتأويل بيان باطن الألفاظ القرآنية، والإخبار عن حقيقة المراد بها ومثاله قوله تعالى :<<**إن ربك لبالمرصاد**>>[الفجر:14] تفسيره أن: الرصد يقال: رصدته،رقبته،والمرصاد مفعال منه وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الإلهية والاستعداد للعرض عليه، وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ في اللغة>>.(19)

والتفسير الاقتصار علـــى السَماع والرواية والاكتفاء بما ورد من مأثور في معاني الآيات، والتأويل استنباط المعاني والدلالات من الآيات عن طريق الدراية والتدبر وإعْمال الفكر والنظر.(20)

وقيل التأويل كشف ما انغلق من المعنى ولهذا قال البجلي: التفسير يتعلق بالرواية،والتأويل يتعلق بالدارية وهما راجعان إلى التلاوة والنظم المعجز الدال على الكلام القديم القائم بذات الرب تعالى.

وقال أبو نصر القشيري: ويعتبر في التفسير الإتباع والسماع، وإنما الإستنباط يتعلق بالتأويل وما لا يحتمل إلا معنى واحدا حمل عليه، وما احتمل معنيين أو أكثر، فإنَ وضع الأشيــاء متماثلة كالسواد حمــل على الجنــس عند الإطــلاق، وإن وضع لمعــان مختلفة، فإن ظهر أحد المعنيين حمل على الظاهر، إلاَ أن يقوم الدليل، وإن استويا سواء كان الاستعمال فيهما حقيقة أو مجازا، أو في أحدهما حقيقة وفي الآخر مجاز كلفظة "المسَ" فإن تنافي الجمع فمجمل يتوقف على البيان من غيره، وإن تنافيا فقد قال قوم يحمل على المعنيين والوجه عندنا التوقف.(21)

ومما سبق ذكره نرى أنه يمكن الجمع بين معظم الأقوال والآراء في بيان الفرق بين" التفسير" و"التأويل"، وأن الاختلاف الحاصل في معظمها اختلاف تنوع لاختلاف تضاد، وهذا يندرج ضمن أنواع التفسير والتأويل .فالتفسير يحمل معنى الكشف والبيان والإيضاح والتأويل يحمل معاني الرجوع والرد والصرف.

فالذي وصف التفسير بالقطع على أن المراد من اللفظ هذا، إنما نظر إلى نوع من التفسير، وهو الذي يعتمد دليلا قطعيا، ومثله من قال لتفسير بيان مراد المتكلم، أو هو ما يتعلق بالرواية، فالملاحظ أن هذه الأقوال تحمل معاني الكشف والبيان.

ومن قال أن التأويل ترجيح أحد محتملات اللفظ دون القطع، أو هو ما يتعلق بالدراية، أو صرف الآية إلى معنى تحتمله أو هو المعنى غير المتبادر إلى الذهن، فكلها أنواع للتأويل.

وخلاصة القول أن التأويل يقدم بحثه حول المعنى انطلاقا من المكونات اللفظية لا من المفردات في حالتها الإفرادية وذلك ان اللفظ تتنازعه سمات جوهرية تخص معناه وأخرى عرضية .

فالتأويل في صوره المتعددة ونتائجه المختلفة، يرتد أساسا إلى قدرة المؤول على فهم النص واستنباط الحكم الدلالي.

تطبيـــــق: وذكر "محمد حسين الذهبي"قائلا:<< إن القرآن له ظاهر وباطن...وباطنه هو مراد الله تعالى وغرضه الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب وهذا خير ما يقال في معنى الظاهر والباطن>>[22].

وذكر مجموعة من الأمثلة لبعضهم ومنها من فسَره ابن عطا الله الإسكندري قوله تعالى:<<وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنها يأكلون>>يس – 33 بقوله:<<القلوب الميتة بالغفلة أحييناها بالتيقظ والاعتبار والموعظة وأخرجنا منها حبا معرفة صافية تضيئ أنوارها على الظاهر والباطن>>.[23]

وفي قوله تعالى:<<**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**>>[الأنعام: 103] احتمل معنيين: الإحاطة والنظر فهل المعنى في الآية الإحاطة والنظر؟ أجاب الكلبي قائلا :<< قال بعضهم الفرق بين الرؤية والإدراك أن الإدراك يتضمن الإحاطة بالشئ والوصول إلى غايته فلذلك نفى أن تدرك أبصار الخلق ربهم ولا يقتضي ذلك نفي الرؤية وحسن على هذا قوله وهو يدرك الأبصار لإحاطة علمه تعالى بالخفيات>>.[24]

ويعني مما سبق أن الإدراك غير الرؤية (المعنى الظاهر)، وعليه يكون ما نفاه الله عن عباده وهو الإدراك وليس النظر.

لننظر في مسألة << استواء الله على العرش>> في قوله تعالى :<<الرحمن على العرش استوى >>[طه:05] والتي يرى المعتزلة أنها مجاز أو صورة تمثيلية، وأنه ليس هناك عرش ولا استواء بمعنى الجلوس، وهم في هذا التأويل ينطلقون من استحالة المعنى الحرفي في حق الله، فهم يحاولون نفي المشابهة التي يفضي إليها الفهم الحرفي فتوصلوا إلى تلك الصياغة التي تنسب إلى " مالك بن أنس"أحيانا وإلى أحمد بن حنبل أحيانا أخرى فتلك العبارة هي التي صارت شائعة << الاستواء معروف والكيف مجهول والحديث عنه بدعه ..>> .[2]

ولو تأملنا قوله تعالى:<<يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي>>[الأنعام: 95]. أريد بهذه الآية إخراج الطير من البيضة فهذا من باب <<التفسير>>، ولو قلنا أراد به إخراج المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل كان تأويلا وهذا التأويل العقلاني جاء بمقابل التفسير(الحرفي).

الهوامــش:

(1) ينظر _ نصر حامد أبو زيد _ الخطاب والتأويل _ المركز الثقافي العربي _ الدار البيضاء _ المغرب ط 3 2008 _ص 175.

(2) جلال الدين السيوطي _ الإتقان في علوم القرآن ج 2 / 460 .

(3) الراغب الأصفهاني _ مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تح: صفوان داوودي دار العلم دمشق (د ث) (دط) ص 636

(4) ابن منظور لسان العرب دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط 1 2005 ج632/3.

(5) مجد الدين الفيروز أبادي- القاموس المحيط- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط 2 - 2007-ص481.

(6) محمد حسين الذهبي- التفسير والمفسرون _(د ط) _ 2004 ج1 /13.

(7) الزركشي- البرهان في علوم القرآن_ تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرةج149/2-180

(8) ابن منظور- لسان عرب - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان- ط 1-2005 ج149/6.

(9) محمــد بن أبي بكر الرازي - مختــار الصحاح _ تح_ مصطفــى ديب البغــا دار الهدى - الجزائر - (د ط)_ (د ت)ص 29.

(10) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي- الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي- بيروت - د ت ج 4 /15.

(11) مجد الدين الفيروز أبادي- القاموس المحيط- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2007 ص977.

(12) مقياس اللغة ج2 /158 /162

(13) الزركشي _ البرهان في علوم القرآن _ ج 2 /148

(14) المستصفى من علم الأصول _مؤسسة الرسالة لبنان _ط1_ 1997 نقلا عن محمد أحمد جهلان _فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعني _دمشق ط1 _2008 _ص204 .

(15) التفسير والمفسرون _(دط) _ 2004 ج29/1 .

(16) نصر حامد أبو زيد _ الخطاب والتأويل _ ص 175 .

(17) جلال الدين السيوطي _ الاتفاق في علوم القرآن _ج2 /54 .

(18) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج 2 /50/149.

(19) نوارة محمد إسماعيل- تأويل الجملة القرآنية الواحدة-دار الراية عمان-2009 ص33.

(20) ينظر-محمد حسين الذهبي- التفسير والمفسرون-ج2/ 16_17.

(21) الزركشي -البرهان في علوم القرآن -ج 150/2.

(22) محمد حسين الذهبي-التفسير والمفسرون-ج2 /343.

(23) المرجع السابق ج 351/2.

(24) التسهيل لعلوم التنزيل- بن جزي الكلبي- دار الكتاب العربي- البيروت – لبنن – ط3 1981 ج18/1.

(25) ينظر_ نصر حامد أبو زيد – الخطاب والتأويل ص 184/183.